



خمسة أمور تعينك على الابتعاد عن المعاصي

المحاضرات

محاضرة في الأردن

2019-12-02

عمان

الأردن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الغر الميامين، أمناء دعوته، وقادة ألويته، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين.

خمسة أمور تمنع الوقوع في المعصية :

1 - أن يعلم العبد قبح المعصية ودناءتها :

وبعد أخواننا الأكارم؛ الحديث اليوم عن المعصية، وكلنا ذو خطأ، والإنسان ينسى فيخطئ، وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَّابُونَ، كلنا ذو خطأ:

{ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ }

(رواه الترمذي)

هذه خمسة أمور تمنع الوقوع في المعصية، وقد استخلصتها من كلام نفيس لابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى، خمسة أمور تمنع الوقوع في المعصية:



الحلال طيب، والحرام خبيث

أولاً: أن يعلم العبد قبح المعصية ودناءتها، وأن الله تعالى إنما حرّمها صيانةً لجسمه ولنفسه ولروحه ولعقله، ما حرم الله تعالى شيئاً إلا كان شيئاً خبيثاً، ولا أحلّ شيئاً إلا كان شيئاً طيباً، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبُجِّلَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَبُحِرَّمْ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ

(سورة الأعراف: الآية 157)



حرم الله ما حرم ضماناً لسلامتك

فالحلال طيب، تطيب به النفوس، والحرام خبيث، تخبث به النفوس، بل إن الحلال ما سمي حلالاً إلا لأن النفوس تحلو به، والحرام ما سمي حراماً إلا لأنه يحرم العبد من القرب من مولاه، وهو أعظم ما في الدنيا وفي الآخرة، وهو القرب من الجليل جلّ جلاله، فالحلال طيب، والحرام خبيث، فإذا علم العبد قبح المعصية ودناءتها أعرض عنها، لماذا حرّم الله الحرام؟ هل حرّمه حداً لحريتك أم حرّمه ضماناً لسلامتك؟ هذا السؤال، الذي يفهم أن المحرمات إنما حرمت حداً لحريته فهو بعيدٌ عن فقه الإسلام بُعد الأرض عن السماء، إنما حرم الله ما حرم ضماناً لسلامتك، كما أنك تمشي في الطريق فتجد لوحةً قد كتب عليها: توتر عال خطر الموت لا تقترب، فإذا شعرت أن واضع هذه اللوحة يريد أن يحدّ من حركتك، وأن يعيق حركتك نحو ما تريد، فأنت ما فهمت الهدف من اللوحة، أما إذا فهمت أن هذه اللوحة إنما وضعت ضماناً لسلامتك لئلا تقترب فيجذبك التيار، فيحصل المحذور، فقد فقهت تماماً ما الذي أراداه واضع القانون، هذا باختصار، فنحن عندما نقول: الحرام يحرم النفس من مناجاة ربّها، والحلال تحلو به النفوس، فالله ما أحلّ إلا الطيب، ولا حرم إلا الخبيث، يل إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ما تركت من شيءٍ هذا للعموم- يقربكم من الله إلا أمرتكم به، وما تركت من شيءٍ يبعدكم عن الله إلا نهيتكم عنه، فإنما أحلّ الله الحلال لتتقرب من الله، وحرّم الحرام لأنه يبعدك عن مولاك، والإنسان إذا استغنى عن طاعة الله - والعياذ بالله- يشقى بهذا الاستغناء.

{ مَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ، إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا نَهَيْتُمُ اللَّهَ عَنْهُ، إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُمُ عَنْهُ }

(أخرجه الشافعي والبيهقي)

إذاً أول بند من البنود الخمس التي تمنع الوقوع في المعصية: أن يعلم العبد قبح المعصية ودناءتها.

مقاصد الشريعة :

أخواننا الكرام؛ كل الأوامر والنواهي في الشريعة جاءت لحفظ المقاصد الخمس، كلها، مقاصد الشريعة الخمس الكبرى، حفظ الدين، لأن الدين نجاتك في الأبد، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ العرض، هذه مقاصد الشريعة الكبرى.

حفظ الدين؛ فأى شيء يسيء إلى دينك حرمة الله تعالى.

والنفس؛ فأى شيء يهلك النفس من انتحار، من قتل، من إعتاب للنفس، من إجهاد لها، كلها محرم.

حفظ العقل؛ فحرم الخمر لحفظ العقل مثلاً.

حفظ المال؛ فالله تعالى جرم السرقة والربا وغيرها من المنكرات، والغش والخداع لحفظ مالك، فكما أنه جلّ جلاله أمرني ألا آكل أموال الناس بالباطل فقد أمر مليار ومئتي مليون مسلم في الأرض ألا يأكلوا مالي في الباطل، هكذا ينظر الإنسان، أنا أمرت ألا آكل مال الناس بالباطل، لكن أمرت الناس كلهم أيضاً ألا يأكلوا مالي بالباطل.

حفظ العرض؛ أنا أمرت أن أحافظ على أعراض الناس، لكن أمرت الناس كلهم أن يحافظوا على عرضي.

بهذا المعنى جاءت المحرمات والمنهيات في الشريعة، فجاءت لحفظ العرض، والعقل، والمال، والنفس، والدين، هذه مقاصد الشريعة، فكل شيء أحله الله لأن النفس تحلو به، وتطيب به، وكل شيء حرمة الله تعالى لأن النفس تُحرم به من لذة القرب من الله تعالى.



المنكر تنكره الفطرة السليمة

يسمى المعروف والمنكر أيضاً؛ المعروف: تعرفه الفطر السليمة ابتداءً، المنكر: تنكره الفطرة السليمة ابتداءً، الكذب منكر، أي نفس سليمة تنكر الكذب، الصدق معروف، أي نفس سليمة تعرف هذا الأمر أنه شيء معروف واضح.

الاستسلام لأوامر الله :

إذاً أخواننا الكرام؛ النبي صلى الله عليه وسلم ماذا قال؟ قال: "إِنَّ الْخَلَالَ بَيْنَ، وَالْحَرَامَ بَيْنَ"، بمعنى آخر الحلال بين بنتائجه الإيجابية المسعدة، "الْخَلَالَ بَيْنَ، وَالْحَرَامَ بَيْنَ"، الله تعالى بين الحلال وبين الحرام.

{ عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: وَأَهْوَى النَّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ: إِنَّ الْخَلَالَ بَيْنَ، وَالْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُسْتَبْهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي بَرَعَ حَوْلَ الْجَمَى، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ جَمَى، أَلَا وَإِنَّ جَمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ }

(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)



الاستسلام لله على قدر معرفتك به

قد يغيب عن ذهن الإنسان الحكمة من بعض المحرمات، لأن علمه قاصر، لكنه يستسلم لمولاه، أي لو أن إنساناً ذهب إلى الطبيب، والطبيب درس ست سنوات، وعمل اختصاصاً أربع سنوات، وفوقهما سنتين، صار يدرس اثنتي عشرة سنة، قال له: لا تأكل هذه الأطعمة مثلاً، عد له بعض الأطعمة، فد لا يفقه حكمة بعض المنهيات، لكنه يقول لك: هذا طبيب قد درس في أعرق الجامعات، فأنا ما فهمت لماذا نهاني عن هذا، لكن هو أخير لأنه صاحب العلم، فقد يغيب عن ذهنك أنت أيها الإنسان لماذا حرم الله هذا الأمر، له حكمة جليلة لكن أنت غابت عنك، لكنك تستسلم لأنه الخبير العليم جل جلاله، فالاستسلام لله على قدر معرفتك به، كلما كان الإنسان أعظم معرفة بالله عز وجل يستسلم لأوامره أكثر، سيدنا إبراهيم أمر أن يذبح ابنه، هل هناك أحد يعرف ما الحكمة عندما قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

(سورة الصافات: الآية 102)

هل هناك إنسان يعرف ما الحكمة من أن يذبح إنسان ابنه؟ أبداً، لا يوجد، لكن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا أَسْلَمًا وَقَلَّ لِلْحَيِّينِ

(سورة الصافات: الآية 103)



العابدين لله مستسلم لأمره

أنا أقول: لقد ذبح إبراهيم ابنه وإن لم يذبحه، لأن القضية انتهت، وضعه ويريد أن يذبحه، على فكرة كلما اتضح جانب الحكمة في الأمر الإلهي وفي النهي الإلهي ربما يضعف جانب العبودية فيه، وكلما غابت الحكمة عنك فأنت يقوى عندك جانب العبودية والاستسلام لله تعالى، كيف؟ أنت أيها الإنسان عندما تقول: أنا لا أطيع أمراً حتى أفهم حكمته، أنت في الحقيقة لا تعبد الله، أنت تعبد ذاتك، لأن الأمر الذي تجد فيه مصلحتك تفعله، والأمر الذي تغيب عنك المصلحة فيه تتركه، إذاً هذه ليست عبادة لله، لكن العابدين لله تعالى يقول لك: أنا مستسلم لأمره سواء فهمت الحكمة أم لم أفهمها، يكفي أن الله تعالى أمر.

أذكر مرة كنت أتابع على الشاشة لقاء بين شخص أسلم حديثاً، وشخص عالم من علماء الإسلام، فسأل الشخص المسلم حديثاً هذا العالم الكبير، قال له: لماذا حرم الله لحم الخنزير؟ ما الحكمة من تحريم لحم الخنزير؟ وما حكمه؟ قال له: حرام، وأخذ يعدد له الأضرار الجسمية والنفسية الناتجة عن هذا المحرم، الدودة الشريطية، وأنه إذا طبخ اللحم مهما غلي لا تذهب الدودة، والنفس تختبئ بلحم الخنزير، ويتطبع بطباع الخنزير، وهناك حكم كثيرة يعرفها أهل الاختصاص، فعُدّ له في دقائق ربما خمس دقائق أو كذا، فلما انتهى قال له هذا المسلم حديثاً، هو غير عربي، مسلم حديثاً، قال له: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرّمه، كان يكفيك بالنسبة لي أن تقول لي: إن الله حرّمه، أي أنا يكفيني أن تقول لي: حرام لأن الله حرّمه، هذا الاستسلام.

2 - الحياء من الله :

إذاً خمسة تمنع الوقوع في المعصية، أولاً: أن يعلم العبد قبح المعصية ودناءتها، وأن الله تعالى لم يجرمها إلا لأن فيها خبثاً للنفس والجسد والروح والعقل، هذه الأولى.
الثانية: الحياء من الله، يقول صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح:

{ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ: فُلْتَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا تَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْقَطَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالتَّبَطَّنَ وَمَا حَوَى، وَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْيَلَى وَمَنْ أَرَادَ الْأَجْرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ {
(أخرجه الترمذي)

اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قالوا يا رسول الله: إِنَّا تَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، أي نحن نستحي من الله والحمد لله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لَيْسَ ذَلِكَ" - يبدو أنكم ما فهمتم مقصودي أن استحيوا من الله، نحن نستحي من الله، من منا لا يستحي من الله- قال: لَيْسَ ذَلِكَ، الحياء من الله حق الحياء أن: الْآنَ اجْفُطُوا هَذِهِ، حق الحياء من الله ما هو؟- تَحْقَطَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالتَّبَطَّنَ وَمَا حَوَى، وَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْيَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْأَجْرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ".
الشرح: أَنْ تَحْقَطَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، لا تدخل لرأسك شيئاً لا يرضى الله عز وجل، تقول: أنا متأثر بالفكر الغربي بهذه المسألة، موضوع قطع اليد كأنها غير مناسبة لهذا العصر، نحن بالقرن العشرين، هذا ما حفظ الرأس وما وعى، كأنني أرى في بعض، هذا نسمعه اليوم على مواقع التواصل الاجتماعي- الأحكام الشرعية ظلاماً للمرأة، ما شاء الله ومن أنت؟



يجب أن يكون الفكر والتصور صحيحاً

من أتم؟ هذا إله بشرع، أنت تقول: كأنني أرى، من أنت؟ فَأَنْ تَحْقَطَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، هذا الشبهات، لأن اليوم الشبهات كثيرة، أي لا ينبغي أن تدخل إلى رأسك شيئاً فيه مخالفة لبشرع الله عز وجل، العقل الفكر، أن يكون الفكر والتصور صحيحاً، الإسلام عظيم، الإسلام منهج الله، الإسلام وحي السماء، كتاب وسنة، لا ينبغي أن أدخل الشبهات إلى عقلي، وأن تستقر في ذهني، هذا الرأس وَمَا وَعَى، وَالتَّبَطَّنَ وَمَا حَوَى، لا تدخل إلى بطنك لقمة من حرام، انظر فيما تأكل، هذا المال حلال أم حرام؟ ودائماً يعبر بالمال يأكلون المال الحرام لأن أكثر ما يستخدم المال للأكل، وهذا لا يعني أنه يستخدم لشيء آخر مسموح، لا، معاذ الله، الحرام حرام، أي إذا اشترى البسة نفس الشيء، لكن يستخدم دائماً يأكلون أموال الناس لأن أغلب ما يفعل بالمال هو الطعام والشراب، قال: وَالتَّبَطَّنَ وَمَا حَوَى، أي لا تدخل إلى جوفك لقمة من حرام الآن: وَأَنْ تَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْيَلَى: المصائب، تذكر الإنسان الموت، وسنأتي على هذه النقطة بعد قليل، يستحي من الله أن يقع في معصيته، قال: وَمَنْ أَرَادَ الْأَجْرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، ما قال: ترك الدنيا، انتبهوا، انظروا الدقة النبوية، قال: وَمَنْ أَرَادَ الْأَجْرَةَ، الإنسان يريد الآخرة لا يريد الدنيا، لكنه يتخذ الدنيا مطيةً للآخرة، فماذا يترك؟ هل يترك الدنيا فيأخذها غيره ويعلو بها؟ لا، قال: وَمَنْ أَرَادَ الْأَجْرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، لأن الشيطان يزين لهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَرَبِّنَّاهُمْ الشَّيْطَانَ

(سورة النمل: الآية 24)



الدنيا ممرٌ للآخرة

ماذا تعني الزينة؟ أي أنت اليوم لو جئت ببعض القمامة- أجلكم الله- ووضعتها في علبة، وعلقت العلبة بشكل جيد، علبة بيضاء ووضعت عليها وردة حمراء، هذه القمامة أصبحت مزينة، فأنت طنتتها شيئاً، وهي ليست بشيء، هي قمامة لكنها زينت لك، من أعمال الشيطان أنه يُزين لك المعصية، يُزين لك الدنيا، فأنت أترك الزينة وخذ حقيقة الدنيا، حقيقة الدنيا أنها ممرٌ للآخرة فخذ منها، ولا تنس نصيبك من الدنيا بما يوصلك لدار السلام بسلام، هذا هو المعنى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، هذا الحديث يكفي في موضوع الحياء من الله، أي الحياء من الله ناتج عن المراقبة، متى راقب الإنسان ربه أنه مطلق عليه؟ استحيا منه أن يقع في معصيته، فكيف تعصيه وهو يراك؟

اطلاع الله على الناس بعلمه و قدرته :



الله معي، الله ناظرٌ إليّ

يقول سهل بن عبد الله التستري: كنت صغيراً أقوم في الليل فانظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، أحد الصالحين، فأنظر إلى صلاته فتعجبني - أتساءل: خالي ماذا يفعل في الليل؟ ينهض في الليل ويقول: الله أكبر ويطء وكذا؟- فجعلت أنظر إليه، فقال لي: يا سهل قل في نفسك وسرك كل يوم ثلاث مرات: الله معي، الله ناظرٌ إليّ، الله شاهدي، قال: فجعلت أقولها في سري - هو لا يدري، قال: كل يوم قلها- فقال: فجعلت أقولها، قال: فلما كبرت قليلاً قال: اجعلها سبع مرات، قال: فجعلت أقول كل ليلة، الله معي، الله شاهدي، الله ناظرٌ إليّ، سبع مرات، قال: فوجدت حلاوتها في قلبي، قال: فلما كبرت قال لي خالي: يا سهل من كان الله معه، ناظرًا إليه، شاهداً عليه، أيعصيه؟ قلت: لا، قال: إياك والمعصية.

علمه بالتلقين، الله معي، الله ناظرٌ إليّ، الله شاهدي.

{ الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ }

(صحيح البخاري)

{ أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان }

(ابن مردويه والبيهقي عن عبادة بن الصامت)

أداء الشعائر و تحقيق غايتها و مقصدها :

يوم كئيباً صغراً جميعاً كانوا يروون لنا قصة بانعة الحليب، تعرفونها؟ ليست قصة ليلي والذئب هذه القصة ليس لها عبرة، أما بانعة الحليب فيها عبرة:

إن لم يكن عمر يرانا فإن رب عمر يرانا، الفاروق رضي الله عنه كان يتفقد رعيته ليلاً فسمع مقالته، ففي الصباح أرسل زيد بن أسلم قال: اطرق الدار، انظر من فيه؟ فإذا فتاة وجدتتها مع أمها، فتاة صغيرة في عمر الزواج، هذه التي قالت: إن لم يكن عمر يرانا فإن رب عمر يرانا، فجاء إلى أولاده قال: والله لو كان لي حركة إلى النساء لتزوجتها، لكن أنا لا أريد أن أتزوج، فمن منكم يتزوجها؟ يريد أن يزوجه لأحد أولاده، فقال الأول: لي زوجة، وقال الثاني: لي زوجة، فقال عاصم: أنا ليس لي زوجة أنا أتزوجها، فزوجها لعاصم، حفيدهم عمر بن عبد العزيز، الذي أعاد للخلافة راشديتها، لأن عمر رضي الله عنه عَلِمَ أن الفتاة التي تستحي من الله وتراقب الله ستنشئ جيلاً مختلفاً تماماً، إن لم يكن عمر يرانا فإن رب عمر يرانا.



حقيقة الدين، مراقبة لله

هذا الراعي الذي كان يرعى في شعف الجبال وجاءه ابن عمر رضي الله عنه، ابن سيدنا عمر أيضاً، جاء - وهم كانوا في الطريق وأرادوا أن يأكلوا- وقال للراعي: تعال كل معنا، فقال: إني صائم- أنا صائم اليوم- قال له: في هذا الحر؟ قال له: أبادر أيامي، ستأتيني أيام أحر، أصومه ليوم أشد منه حرًا، قال: أبادر أيامي، فأراد أن يمتحنه، لأنه عندما سمع منه أنه صائم وفي هذا الحر الشديد ومعهم العديد من الأغنام في شعف الجبال يا ترى هل هذا كلام بكلام أم واقع؟ فقال له: يعني هذه الشاة نذبحها ونأكلها، قال: ليست لي، كيف أبيعك إياها هي ليست لي؟ قال له: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، أي لها حل، قال له: إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدقتني فإني عنده صادق أمين، قال: ثم انصرف الراعي برفع إصبعه إلى السماء يقول: أين الله؟ أين الله؟ إذاً هذا الأعرابي استطاع أن يفهم حقيقة الدين، حقيقة الدين أين الله؟ أن ترى أن الله يراقبك، مطلع عليك، شاهدك، ناظر، هذا هو الدين، هو مراقبة لله، الباقي شعائر ومهمة جداً ولا يمكن التنازل عنها أبداً، لكن حقيقة الدين أن تصل إلى مرحلة أين الله؟ كلاهما متكاملان الشعائر والمعاملة، أي هناك سلوكان اليوم مرفوضان، السلوك الأول، شخص يقول لك: إيماني في قلبي، تقول له: كأننا لا نراك في الصلاة، يقول لك: هذه الصلاة حركات وسكنات أنا المهم معاملتي للناس، انظر إلى الذين يصلون ماذا يفعلون؟ هذا تلبسة، امرأة غير محبة تمشي في الطريق، لماذا لا تتحجبن؟ الحجاب ليس له علاقة، الإيمان في القلب، هذا سلوك مرفوض، الإسلام شعائر ومعاملة، والصفة الثاني إنسان بالصف الأول في المسجد لكنه يؤدي الناس ويغشهم، وامرأة محبة وملتزمة كانت تتكلم في أعراض النساء، فكلاهما مرفوض، بالإسلام الكل متكامل لا يتجزأ، العبادة الشعائرية مطلوبة لكن لا بد أن تحقق هدفها في معاملة الناس:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

(سورة العنكبوت : الآية 45)

{ رَبِّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرَبِّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ }

(رواه النسائي وابن ماجه)

فالمطلوب أداء الشعائر، والمطلوب أن تحقق الشعائر مقصدها و غايتها، ولا يغني واحد عن الآخر.

3 - أن يعلم أن النعم التي هو فيها إنما تزول بمعصية الله :



المعاصي تُزيل النعم

خمسٌ تمنع الوقوع في المعصية، أولاً: أن يعلم العبد قبح المعصية ودناءتها، وأن الله تعالى إنما حرّمها صيانةً له ولنفسه ولجسده الخ... ثانياً: أن يستحي من الله حق الحياء، وذكرنا ما هو حق الحياء، ثالثاً: أن يعلم أن النعم التي هو فيها إنما تزول واحدةً واحدةً بمعصية الله، كلنا في نعم والمعاصي تُزيل النعم، يقول صلى الله عليه وسلم: " قد يحرم العبد الرزق بالذنب بعمله " قد يحرم العبد الرزق بالذنب بخصمه، فالإنسان إذا عصى الله تعالى زالت عنه النعم، نحن في نعم كثيرة، الصحة نعمة، والمال نعمة، والكفاية نعمة، والزوجة نعمة، والولد نعمة، والبيت نعمة، كلنا مغمورون بنعم الله، فالمعاصي تُزيل النعم، فينبغي أن يعلم العبد أن المعصية التي هو فيها تُزيل النعم التي أنعم الله بها عليه، بينما شكره بزيدها:

{ عن ثوبان مولى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: لا يزيد في العُمُر إلا البر، ولا يردُّ القَدَرُ إلاَّ

الدُّعاء، وإنَّ الرجل لُحِرِم الرِّزْق بالذنب بُصِبه }

(رواه ابن ماجه والتّسائي)

قال عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود: "إِنِّي لَأَحْسِبُ الرَّجُلَ يَنْسَى الْعِلْمَ كَانَ يَتَعَلَّمُهُ بِالْحَطِيئَةِ يَتَعَمَّلُهَا".

الإمام الشافعي رضي الله عنه رحل من مصر إلى المدينة المنورة ليلقي إمام عصره الإمام مالك رحمه الله، فقبل أن يذهب إليه أخذ مُوطَّئَةً، موطأ الإمام مالك فيه آلاف الأحاديث، أخذه وحفظه ياسانيدته عن ظهر قلب، حفظ الموطأ كاملاً، فلما وصل المدينة جلس بين يدي الإمام مالك يقرأ عليه الموطأ حديثاً حديثاً، فكان- كما يقول الشافعي- ينظر الإمام مالك إليّ مدهوشاً، هذا الشايق كيف حفظ هذا الحفظ؟ فكان ينظر إليه مدهوشاً قال: فأنتمت قراءته في أيام، كل يوم، كل يوم، يقرأ عليه حتى أتم قراءة الموطأ، فلما انتهى منه قال: "يا غلام إِنِّي لَأَرَى لَأَرَى اللَّهَ قَدْ أَتَى فِي قَلْبِكَ نُورًا، فَإِنَّكَ أَنْ تُطْفِئَهُ بِطَلْقَةِ الْمَعْصِيَةِ"، فكان الشافعي يقول:

فكل معصية لها نعمة تُزيلها هذه الثالثة.

4 - أن يعلم أن لكل معصية عقاباً :

أما الرابعة فكل معصية لها عقاب.

الأولى: أن يعلم العبد قبح المعصية ودناءتها، الثانية: أن يستحي من الله حق الحياء، الثالثة: أن يعلم أن المعاصي تُزيل النعم، الرابعة: أن يعلم أن لكل معصية عقاباً.

يقول عَبْدُ اللَّهِ بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: " إِنَّ لِلْمَعْصِيَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَبْرِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَتَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُخْصَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلطَّاعَةِ بَيَاضًا فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَبْرِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ".

فكل معصية لها عقاب، وكل معصية تُزيل نعمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِعُقُومٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

(سورة الرعد: الآية 11)



أعظم عقاب للمعصية

أعظم عقاب للمعصية أن يُحجب الإنسان عن ربه في الدنيا أو في الآخرة، يظن الإنسان أن هذا أهون عقاب، لكنه أعظم عقاب ألا يشعر بالقرب من الله عز وجل، وأن الله معه يدعمه، يؤيده، ينصره، أن يشعر بأن الله تخلى عنه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ

(سورة المطففين: الآية 15)

ومن أعظم العقوبات على المعصية والعباد بالله سوء الخاتمة.

يذكر ابن القيم رحمه الله في بعض كتيبه وينقل القصة موثقة عنده جرت في عهده أو قريباً منه، أن هناك مؤذناً كان يؤذّن في مسجد، مؤذّن وما أعظم هذه المهنة! أطول الناس أعتاقاً يوم القيامة، لكن يبدو في دينه رقة، أي ليس متمكناً من إيمانه، فخرج يوماً ليؤذّن فإذا بامرأة تسأله: أين حمام منجاب؟ حمام منجاب حمام قديم معروف كان يبدو في الشام، فقالت: أين حمام منجاب؟ قال: فوقعت في قلبه هذه المرأة، فأشار لها إلى باب داره، فدخلت في السرداب فدخل وراءها وأغلق الباب، فلما رأت أنها قد وقعت في شرك المعصية وهي لا تريد ما قالت له: يصلح أن يكون معنا الليلة ما يطيب به عيشنا؟ فقال: الآن أتيتك بكل ما تشتهين، فخرج يبحث وبأني بالطعام والشراب، فهربت، فلما رجع لم يجدها، فجعل ينشد ويقول:

وترك الأذان وأصبح كلما تغنى بهذا الشعر يا رَبِّ سائِلاً تَوْمًا وقد تعبت، أين الطريق إلى حمام منجاب؟ يقول ابن قيم: فلما حضرته الوفاة، قال له بعض من عنده قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: يا رَبِّ سائِلاً تَوْمًا وقد تعبت، أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فمن أعظم مصائب المعصية سوء الخاتمة، ولو تدبر الإنسان في هذا العقاب وحده لكفاه أن يقول: بعداً عن المعصية وأن يتوب إذا أحدث المعصية لأننا كلنا أصحاب خطأ، لن نكذب على أنفسنا، لكنه لا يصر على معصية ولا يفعلها استعلاءً، أو إصراراً، أو مداومةً، وإنما يتوب منها فوراً ويدعها.

5 - قصر الأمل وتذكر الموت :

خمسٌ تمنع الوقوع في المعصية، أن يعلم العبد قبح المعصية ودناءتها، أن يستحي من الله حق الحياء، أن يعلم أن المعاصي تزيل النعم وإحداً واحدة، أن يعلم أن لكل معصية عقاباً، والخامسة: قصر الأمل وتذكر الموت، الإنسان الذي يطول أمله يتمادى في المعاصي، والذي يذكر الموت دائماً (كفى بالموت واعظاً يا عمر) أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ:

{ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ، الموت }

(رواه الترمذي، والنسائي)

فالموت يقطع كل اللذائذ، ويقطع كل المتع الدنياوية، فإذا تذكر الإنسان الموت وتذكر أن له موقفاً بين يدي الجليل عندها يسارع إلى التوبة.



الموت يقطع كل اللذائذ

روي ابن قدامة في كتابه "التوابون" بأن هناك شخصاً اسمه دينار العيار، وكانت له أم تعظه فلا يتعظ، يا بني تب، يا بني، يا بني، فلا يتوب، قال: ثم إنه مر يوماً بمقبرة فوجد فيها عظماً نخرًا قد خرج من القبر، فأمسكه في يده ففتته فتفتت، فقال: كيف بك يا نفس إذا صار عظمك رفاتاً وجسمك تراباً وما زلت مكنيةً على المعاصي والآثام؟ هو كان مسرفاً على نفسه، ثم رجع إلى البيت فجعل يبكي ويستغفر ويتوب ويصلي، قالت له أمه: يا بني أتعبت نفسك، كانت تعظه فلا يتعظ، ثم اتعظ بالموت، فصارت تقول: خفف عنك، أتعبت نفسك، قال يا أمه: راحتها أريد، يا أمه إن لي موقفاً بين يدي الله تعالى إما إلى ظل ظليل، وإما إلى شر مقيط، فتذكر الموت، وبأن الأمل قصير، وبأن الدنيا فانية، وبأن لنا موقفاً بين يدي الله يعين الإنسان على أن يقلع عن المعاصي، وأن يتوب من بعضها إن وقع فيها.

هذه إذاً خمسة تمنعنا أو تعيننا على ترك المعصية، أن يعلم العبد قبح المعصية ودناءتها، وأن الله إنما حرّمها صيانةً لنفسه، وجسمه، وعقله، وروحه، وأن يستحي من الله حق الحياء، وأن يعلم أن المعاصي تزيل النعم، وأن يعلم أن لكل معصية عقاباً، وأن يتذكر الموت فيقصر أمله.

العلاقة بين المعصية ونتائجها والطاعة ونتائجها علاقة علمية :



المعصية وبال بذاتها

أخواننا الأحباب: تذكرت عندما قلنا لكل معصية عقاب، العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة علمية، ماذا يعني علاقة علمية؟ أي هناك مدفأة، المدفأة القديمة تعرفوها، وهذه المدفأة مشتعلة في الشتاء فعندما يُقرب الإنسان يده منها، ويضع يده على المدفأة ستحترق، العلاقة بين الفعل ونتائجها علاقة علمية، المدفأة تحرق، الموضوع ليس موضوع يكون أو لا يكون العقاب أو النتيجة ستحصل أو لن تحصل، المعصية لها نتيجة سيئة حكماً، إنسان يقود شاحنة كبيرة مرتفعة، وهناك جسر وسيارات أمامه، ومكتوب على الجسر: أربعة أطنان و نصف، ماذا يعني هذا الكلام؟ أي إذا سيارتك أكثر من أربعة أطنان و نصف لا تمر، فهو أوقف سيارته لأنها خمسة أطنان، وقال: يبدو أنه ليس هناك شرطة لأستعجل وأمر، هذا غيبي، الموضوع ليس له علاقة بالشرطة، لا تحتاج إلى شرطي يعاقبك، الجسر وحده سيعاقبك، فأنت عندما تتعامل مع الله عز وجل بأن المعصية ليست الموضوع، فالمشكلة أن المعصية نفسها وبال، فالمعصية هي بنفسها تعاقبك، فالإنسان عندما- والعياذ بالله- يعصي ربه فنتيجة الخطأ حتمية، سيخطئ، سيأخذ نتيجة، وبالمقابل تماماً الطاعة ونتائجها علاقة علمية، فأنت عندما تطيع الله ستجد راحة في نفسك، ستجد أنساً بالله عز وجل، ستجد قرباً من الله، ستجد خيراً من الله عز وجل، فالطاعة نتائجها فيها والمعصية بدور نتائجها السيئة في داخلها.

والحمد لله رب العالمين